

بقلم : أندرو ساريس

إن حالة النقد السينمائي في الولايات المتحدة اليوم أكثر صحة من حالة السينما في الولايات المتحدة، ففي حين أن الملايين من رواد السينما أخذوا يتأون بجانبهم عنها ، فإن ألوف المتحمسين من الطلبة الجامعيين في الكليات والجامعات في طول البلاد وعرضها بادروا إلى أخذ محل هؤلاء الذين همجروها .. ومن هنا ، انتقل دور السينما الاجتماعي إلى التلفزيون بقدر انتقال هذا الدور الاجتماعي من المسرح إلى السينما منذ نصف قرن من الزمان . ومن ناحية أخرى ، تجرى الآن دراسة الأفلام السينمائية - الجديد منها والقديم - بطريقة أكثر جدية وعمقاً من ذي قبل .. وجدير بالذكر في هذا الصدد أن الدراسات العلمية عن الأفلام التي تصدر الآن في سنة واحدة أكثر من مجموع ما نشر من مثل هذه الدراسات في أي عقد ابتداءً من أوائل العشرينيات حتى نهاية الخمسينيات . ولا يقتصر التعبير على الكم فحسب ، وإنما يشمل النوع أيضاً . وهناك منظور تاريخي وحب استطلاع فلسفي حتى في أبسط العروض الروتينية للأفلام أكثر منه الآن في أي وقت مضى . وإلى جانب ذلك هناك جدل أكثر سخونة . ولما كنت أحد الذين يخوضون في خضم هذا الجدل ، فإنني لا أستطيع الادعاء بأن أكون موضوعياً

بالنسبة للموقف ، وإنما سأحاول أن أكون شارحاً لموضوع لا واصفاً له وهو موضوع ارتبطت وشاركت به ارتباطاً وثيقاً .

أولاً ، أود أن أضع الأساس لهذا البحث وذلك بإثارة ما بقي من التقليد الكلاسيكي في النقد السينمائي في الولايات المتحدة ولقد صدر كتاب فاشل لنيديساي « فن الصور المتحركة » في عام ١٩١٥ ثم عدل وأضيفت له أبواب أخرى في طبعة جديدة صدرت في عام ١٩٢٢ . ويعتبر لنيديساي ، وهو شاعر معروف ، بأنه واحد من المفكرين الأمريكيين الذين أضفوا على السينما الهبة الجمالية التي أحيطت بها الفنون القديمة . ولما كان أبعد ما يكون عن الدعاية لمبدأ عن سينما خالصة ، فإنه رحب بالتأثير الذي لا مفر منه للرسم والدراما والأدب على هذه الوسيلة الإعلامية الجديدة . وفي عام ١٩١٦ أصدر هوجو مونستربراج ، وهو عالم نفساني ألماني مهاجر ، كتاب « التمثيلية المصورة .. دراسة سيكولوجية » وهو بمثابة تأمل مهمل ظلماً للعلاقات التكافلية بين السينما الصامتة وجاهيرها . ولكن أشهر النقاد المتظمين في عهد السينما الصامتة كان روبرت شيروود الذي ألف فيلماً بعد عدد من التمثيليات الرائعة مثل « الطريق إلى روما » و « الغابة الميتة » و « إيبي لينكولن في إيلينويس » . وبينما كان لنيديساي منحاذاً إلى فن د . و . جريفيت ، كان شيروود متحيزاً لشابلين وكيوتون ولويد ودوجلاس فيربانكس الكبير .

ومع ذلك فإن لنيديساي ومونستربرج وشيروود لم يستلقتوا انتباهنا إلا أخيراً ، وهكذا ، فإنه لا يمكن القول بأنهم قد أثروا على مجموعة النقاد السينمائيين الحاليين في الولايات المتحدة .. ولعل أكثر النقاد السينمائيين الأمريكيين تأثيراً حتى الآن هما جيمس آجي ، الناقد السينمائي الراحل لمجلتي « تايم » و « ذي نيشن » طوال الأربعينيات ، وروبرت وارشو الراحل المعلق والناقد في صحيفة « كومنتاري » في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات . لقد مارس وارشو وآجي أقوى تأثيرهما بواسطة مجموعات أحسن

كتاباتهما الوليدة ، وكان آجى يكتب تحت عنوانين « الفيلم » و « التجربة الفورية » . وكان أونيس فيرجوسون الراحل الناقد الذى تأثر به كل من آجى ووارشو ، بمقالاته فى صحيفة « نيوريابليك » فى المدة بين عامى ١٩٣٤ و ١٩٤١ ، قد طوى اسمه فى طى النسيان إلى أن صدرت كتاباته فى شكل عام ١٩٧١ تحت عنوان « النقد الفيلمي لأوتيس فيرجوسون » .

ومن النقاد الذين مازالوا يؤثرون على النقد السينمائي ما فى فاربر مؤلف كتاب « الفضاء السلبي » وممارس لشكل من أشكال التحليل الفيلمي الموجه نحو الفنون التصويرية ، وهناك أيضاً باركر شابلر ، مؤلف كتاب « سحر وخرافة الأفلام » وكتاب « هلوسة هوليوود » . ومن النقاد البارزين وليم ك . إيفرسون ، واضع أحسن مؤلفات عن لوريل وهاردى و . و . س . فيلوز وأفلام الغرب وهناك أيضاً جوناس ميكاس الذى يعتبر رائداً من رواد النقد ولويس جاكوبس ، مؤلف كتاب « نهضة الفيلم الأمريكى » الذى يعتبر من أحسن الكتب التى يضعها أى أمريكى عن تاريخ الفيلم .

إن هذه المقدمة تنقلنا إلى النقاد السينمائيين فى الولايات المتحدة اليوم ولكن من أين يبدأ المرء . وهذا لا يعنى مع من ولكن من أين ؟ أمن نيويورك ؟ أمن شيكاغو ؟ سان فرنسيسكو ؟ لوس أنجيلوس ؟ وشنطن أو من أى مكان من مئات الأماكن فى الولايات المتحدة . فإذا بدأنا فى نيويورك كما ينبغى أن يبدأ أى عرض أو تاريخ معقول للنقد السينمائي ، فإننا يمكن أن نفعل أسوأ من البدء بنقاد « النيويورك تايمز » التى تعتبر أقوى صحيفة فى الولايات المتحدة وأكثرها نفوذاً . إن مجموعة الناقد السينمائيين الذين يعملون فى الصحيفة اليوم تضم فنسنت كانبي وروجر جرينسبون وهوارد طوميسون وآجى وايلر ، وهذه المجموعة من أقوى مجموعات النقاد الذين عملوا فى الصحيفة منذ مولد السينما . وهناك ناقدان سينمائيان بارزان يعملان فى صحيفة « ذى ستارداى

ريفيو» وهما هوليس ألبرت وأرثر نايت ، وتضم القائمة أيضاً ناقداً أبرزهن مسر جيليات والآنسة كائيل .

ومن التطورات اللافتة للنظر أن كثيراً من النقاد السينمائيين تحولوا في السنوات الأخيرة إلى تأليف الروايات ، وأن كثيراً من الروائيين تحولوا إلى نقاد سينمائيين ، ومن النقاد الروائيين ويلفريد شيد وبرندان جيل وهوليس ألبرت وجوزيف مورجنسترن وبنيلوب جيليات وستانلي كوفمان وغيرهم ، وقد جمع أرثر شليسنجر إلى جانب عمله كمستشار سينمائي فني ، النقد السينمائي والتدريس وعمد كثير من النقاد على سبيل التغيير إلى تسهيل جمع كتاباتهم وهم على قيد الحياة . ومن هؤلاء بولين كائيل ورييناتا أدلر وهوليس ألبرت وأرثر نايت وستانلي كوفمان وريتشارد شيكل وماني فاربر وجون سيمون وأندروساريس . وثمة كاتبان من كتاب المقالات السينمائية دخلا حقل الإنتاج وهما بيتر بوجدانوفيتش وسوزان سونتاج ، وجدير بالذكر أن عدد النساء اللاتي يمارسن لوناً من ألوان النقد السينمائي ، كبير بشكل غير عادي بالنسبة لعدد النساء اللاتي يعملن في أي حقل من حقول الأنشطة الفنية ، فإلى جانب الناقدات اللاتي سبق ذكرهن مثل بنيلوب جيليات وبولين كائيل وجوديت كريست ورييناتا أدلر وسوزان سونتاج هناك أيضاً مولي هاسكل الناقدة السينمائية في مجلة « صوت القرية » وواندا هيل وكاتلين كارول وآن جوارينو الناقدات في جريدة « ديلي نيوز » وأرلين جروس الناقدة في صحيفة « ذى ناشونال ريفيو » وليز سميث في صحيفة « كوزموبوليتان » وغيرهن . ولا يتسع المجال لإيراد أسماء أخرى ، لأن هناك أسماء كثيرة جدا وكلها تستحق الذكر . ومن ثم فإننا نرى أن ندع تسجيل مزيد من الأسماء ونتجول إلى الحديث عن بعض المجموعات الأيديولوجية في النقد السينمائي الأمريكي . أولاً ، هناك النقاش الدائم حول الميزات النسبية للأفلام الأمريكية والأجنبية . ولا بد لنا هنا من الإشارة إلى أن عبادة الفيلم الأجنبي نشأت أول ما نشأت في العشرينيات بالنسبة للسينما الألمانية

والروسية اللتين كانتا تمتازان بحركة الكاميرا التعبيرية ونظريات المونتاج الثورية . وقد اجتذبت سينما النوع الفرنسية بعض المعجبين في الثلاثينيات لمعالجة « الكبار » للجنس . ولقد سيطرت مذاهب الواقعية الجديدة الإيطالية التي انتهجها كل من روسيليني وفيسكونتي ودي سيكا وزافاتيني على الفترة من أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات . ثم جاء عصر المخرجين « المعبودين » من أنحاء متفرقة من العالم مثل أنجار بيرجمان من السويد وفيليني وأنطونيو من إيطاليا وميزوجوش وكوروساوا واوزو من اليابان وبونويل من أسبانيا وشابروول وجودارد وتروفو ودويسنيه من فرنسا وسكولوموفسكى وبولانسكى وهانز ووادجا من بولنده وساتياجيت راى من الهند وكارل دريبير من الدانمرك . وكان الجو النقدى فى نيويورك على مر السنين مؤيداً للأفلام الأجنبية من وجهة نظر أستوديوهات هوليوود . وكان هذا النقاش الكبير فى نيويورك يدور حول الافتقار إلى الحرية فى هوليوود حتى وإن كانت الأفلام الأمريكية أكثر وضوحاً من الناحية السياسية من الأفلام الأجنبية . وأكثر صراحة فى نقد مؤسسات محددة مثل الرئاسة والكونجرس والحاكم والشرطة والسجون والقوات المسلحة والعمليات الانتخابية ، ولم تكن هوليوود أكثر تحفظاً إلا فى إطار السلوك الجنسى ، على أنه فى غضون العشرة الأعوام المنصرمة مال « البندول » نحو الجهة المضادة إلى حد بعيد حتى أن النقاد الأمريكيين لم يعودوا يتقدون السينما الأمريكية لافتقارها إلى الصراحة . ونتيجة لذلك أعرب كثير من النقاد السينائيين الأمريكيين عن اغتباطهم لظهور سينما أمريكية « محررة » فى حين آثر نقاد آخرون أن يذهبوا إلى حد الإعراب عن استنكارهم لغياب جميع القيود والتقاليد ، الأمر الذى أدى إلى تدهور السينما لا إلى إعطائها حرية حقيقية . وليس ثمة شك فى أن النقاش ينقل من فيلم لآخر ومن ناقد إلى غيره . ولكن هناك فجوة ملحوظة تزداد اتساعاً بين نقاد السينما الوقورة وجماهير النظارة . فثلاً إن التصاعد الهائل فى التحقيق الجنسى فى الأفلام الأمريكية يعالجه معظم النقاد فى

نيويورك على أنه حالة طبيعية .. ولكن في خارج نيويورك مازالت القوى المحافظة أو الليبريتانية في المجتمع الأمريكي قوية جداً حتى أن غالبية الزعماء السياسيين يستمعون إلى آرائهم الليبريتانية باهتمام بالغ . وجدير بالذكر أن الليبريتارية ( المذهب الليبرالي ) والليبريتانية تسيران معاً في تيار الحضارة الأمريكية ، وقد عمد معظم النقاد إلى تأييد دعاوى الليبريتارية ومطالبها .

على أنه مازالت ثمة حقيقة وهي أن غالبية الأفلام الأجنبية قد فقدت صلاحيتها التجارية بسبب المضمون المتطور في الأفلام الأمريكية ولقد خسرت الأفلام الأجنبية ، بخسارتها لصلاحيتها التجارية ، كثيراً من حصانتها للنقد . ولم تعد هناك علامات تعجب وصيحات استكبار وتعظيم لأعمال المخرجين السينائيين الأجانب .

وثمة اتجاه آخر في النقد السينائي الأمريكي هو الإلام المتزايد بأساليب الإخراج والتصوير السينائي . لقد كان المؤرخون السينائيون ذوو الاتجاه الاجتماعي في الماضي ينظرون إلى الأفلام كوسيلة جاهريية أقل من نظرهم إليها كفن . ومن هؤلاء المؤرخين جاكوبس وجريسون وكراكوير وروثا وجريفيث ولييدا وسادول وغيرهم . وكان معظم النقاد الأمريكيين يميلون إلى تحليل الأفلام بالنسبة لمضمونها الاجتماعي والأدبي . وما زالت هذه النزعة تسيطر على اتجاه النقد السينائي في أمريكا .

من أهم الظواهر التي اتسم بها العقد الماضي هو اعتبار المخرج السينائي فناً واعياً ، وقد يعود سبب هذا الإدراك إلى انهيار نظام الاستوديو من ناحية وإلى صخب المخرجين المتزايد أنفسهم من ناحية أخرى . إن المخرج لم يسم أعلى من الشمس . ولما كانت هذه الأخيرة بمثابة شكل للتدليل على دوران الأرض من وجهة نظر العين البشرية غير المعصومة عن الخطأ ، فإن سمو المخرج يعتبر مسألة خيال انتقادي .

إن المخرج كالشمس موجود في المجموعة الفيلمية ، وقد وجد النقد السينائي منذ ظهور السينما وإن كان النقد قد عانى من فقدان الذاكرة الأسلوبية نظراً لاختفاء نسخ

الأفلام من التوزيع بعد عرضها التجارى . إن الناس الذين نشئوا فى الثلاثينيات لم يعرفوا شيئاً على الإطلاق عن سينما العشرينيات اللهم سوى بعض الأفلام القصيرة ذات البكرتين .. وعند حلول عام ١٩٣٤ ، كانت الرقابة قد منعت عرض كثير من الأفلام حتى الأربعينيات والخمسينيات حينما أرغم المذهب التليفزيونى الاستوديوهات أن تفتح خزائنها . إننا مازلنا بعيدين عن ذلك اليوم الذى يستطيع المثقفون فيه أن يحصلوا على الأفلام التى هم بحاجة إليها من المكتبات الفيلمية ، ولكن توزيع الأفلام قد ترك أثره على النقد المعاصر.. إن هناك بعض المنافع التى حققها النقاد من التوزيع المحسن للأفلام القديمة فى الستينيات ، ومن هذه القوائد ، معرفة أكبر بالماضى وإحساس بالاستمرارية الأسلوبية فى أعمال المخرجين وأساليب كل عصر .

ومن سوء الحظ أن وظائف المخرج تختلف اختلافاً كبيراً فى فيلم عنها فى فيلم آخر وبين مخرج وآخر . وقد يعتبر بعض النقاد مخرجاً من المخرجين كمبدع وآخرون يعتبرونه مراقباً والبعض يعتبرونه راوياً لقصة بصور وكاميرات بدلاً من الكلام ، وهناك بعض النقاد يعتبرونه «ديكوريسيت» لسيناريوهات الآخرين ، ولكن نتيجة لهذا الاضطراب والخلط بين النقاد والمخرجين ، انقسم النقد السينمائى إلى معسكرين متصارعين تاركاً المخرج الضعيف بينها .

إن حالة النقد السينمائى فى الولايات المتحدة يجب اعتبارها كعملية أقرب إلى أصولها منها إلى أهدافها النهائية فالتحليل المتعلق بالتركيب والأسطورة والنوع والتعريف الوجودى والموضوعى هى مثل الوسيلة - أى السينما - التى تستهدف تفسيرها وشرحها . إن هذه فترة تسودها موجة عارمة من الإثارة لأن السينما نفسها مازالت فى حالة انتقال مرئى .. إن للنقاد والأساتذة السينمائيين الأمريكيين ميزة وهى رسم طريق المستقبل كفن جديد فى عالم قديم . ومما لا شك فيه ، أن الجدل سيشتد بضراوة أكثر من ذى قبل .